

الحياة النفسية للجنس الاسود

للاستاذ أحمد فؤاد الاهواني

أستاذ الفلسفة بالمدارس الثانوية

إنك إذا نظرت إلى الناس على كثرتهم عدآ ، واختلافهم شعوباً وأمماً ، وتباينهم تحلا وملا ، لا يمكنك بالرغم من كل ذلك أن تضرب صفحاً عن كثرة عددهم واختلاف شعوبهم وأممهم ونحلتهم ومللهم ، ثم تجمعهم جميعاً تحت جنس واحد يندرجون تحته ، ويلهم هذه الأفراد المتباينة المتباعدة ، ذلك الجنس هو الانسانية ؛ ولكنك مع ذلك تستطيع أن تحللها ، لا إلى دولها وممالكها وأقطارها ، فهي كثيرة لا يحصوها العد ، ولا إلى لغاتها ولهجاتها فهي متعددة مختلفة ، فهذه كلها أقسام صناعية ، هي أعراض مفارقة قابلة للزوال ، فالأمم تمحي من صفحة العالم ويقوم على ألقاضها أمة طارئة ، وقد تقص أجنحتها أو تتسع رقعتها ، وقد تزول لغة الأمة ويستبدل أهلها لساناً غير لسانهم ولهجة غير لهجتهم ؛ ولكننا نريد أن نصنف الانسان في أجناس ثابتة ، تقوم على فوارق ذاتية غير عارضة ، واختلافات دائمة طبيعية غير زائلة ، فإذا اتخذنا أساس تصنيفنا المميزات الجسمية والظواهر النفسية ، أخرجت لنا ثلاثة أجناس كبار ، تتفق في الانسانية عامة من ناحية ، ولكنها تختلف في بعض الصفات والمميزات من ناحية أخرى ، هذه الاجناس الثلاثة هي : الجنس الاسود ، والجنس الأبيض ، والجنس الأصفر ؛ وهذا أفضل تقسيم ، لا لسهولة ووضوحه فقط ، ولكن لثبات هذا التقسيم إلى درجة كبيرة ، فهناك لكل جنس من هذه الاجناس مميزات خاصة يعرف بها ، ولا يهمننا الآن ذكر صفات الجنس الأبيض والأصفر ، ولكننا نذكر مميزات الجنس الاسود الذي نريد أن نتناوله بالبحث . وقد فطن ابن خلدون في مقدمته إلى مثل هذا التقسيم الحديث ، وإن كان تقسيمه عرضة للتجريح من نواح متعددة ، إلا أنها محاولة نستطيع أن نقول إنها الأولى لشرقى هو أول من تناول علم الاجتماع وشيئاً من علم النفس بطريقة منظمة ؛ ولكن ابن خلدون لم يذكر من صفات الجنس الاسود إلا لونهم الاسود . ثم ذكر تعليل هذا اللون من ناحية ، ووجه قسداً مريراً شديداً إلى من تناولوا هذا الموضوع بالبحث من قبل وأخطأوا فيه من ناحية أخرى ، قال في المقدمة الثالثة : « وقد توهم بعض النساين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ، ظهر أثرها في لونه ، وفيما جعل الله من الرق في عقبه ، وينقلون في ذلك حكاية من خرافات القمص ؛ ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد ، وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيداً لولد اخوته

لاغير — وهنا تقرأ تعليل ابن خلدون لطبيعة السواد فانظر — وفى القول بنسبة السواد الى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما فى الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات ، وذلك أن هذا اللون شمل أهل الأقليم الأول والثانى من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب ، فان الشمس تسامت رءوسهم مرتين فى كل سنة قريبة احدهما من الأخرى ، فتطول المسامطة عامة الفصول ، فيكثر الضوء لأجلها ويلج القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لافراط الحر» وقد فطن ابن سينا إلى هذا الأمر فقال فى أرجوزته فى الطب :

بالزنج حر غير الأجسادا حتى كسا جلودها سوادا
والصقلب اكتسبت البياضا حتى غدت جلودها بياضا

أما العلماء المعاصرون فانهم قد بحثوا المسألة بحثاً علمياً، استنفدوا فيه كل أجزائها ونواحيها، وكانت نتيجة بحثهم وملاحظاتهم أن الجنس الأسود يختلف لونه من البنى الغامق إلى الأسود الشديد السواد، وشعورهم دائماً سوداء قصيرة ومجمدة ، وقليل ما تنبت لحامهم ، وإذا نبتت كانت مجمدة أيضاً، والرجل الأسود هو (دوليكوسفال) (DOLICHOCERPHALES) وهى من الكلمتين الأغريقيتين (Dolichos) ومعناها طويل، وكلمة (ICERPHALE) ومعناها الرأس — أى جمجمته على العموم تمتد من الامام الى الخلف وضئيلة الحجم ، والجبهة ضيقة ومسطوحة ، وعيونهم الغامقة تتوسط رءوسهم، والأنف كبيرة ومفرطحة ، والقم واسع ذو شفاه غليظة.

والآن ماهو الفرق من الناحية النفسية بين الأجناس الثلاثة اذا صرفنا نظراً عن فوارق السن والدولة والطبقة والفوارق الشخصية والجنسية ؟ شبه كثير من العلماء الأجناس الثلاثة بالمرحل الثلاثة لحياة الانسان : الطفولة والشباب والكهولة . فبين الطفل والانسان النطرى أوجه شبه متعددة، فالجنس الأسود كالطفل ؛ وهذه الموازنة ذكرها كثير من علماء الاجتماع وعلماء الأجناس أمثال : سبنسر ، ودينكر (١) ، وليتورنو ، وهوفيلاك ، كذلك كثير من الرحالة . أما الجنس الابيض فهو كالشباب ، والجنس الاصفر كالكهل ؛ ويجب أن لانسى أن هذا التشبيه عام يترك وراءه كثيراً من الشواذ.

لنصف بعد ذلك هذا الجنس الأسود من الناحية النفسية ، أعنى من ناحية حياته النفسية التى ذكرنا فى عدد سابق من «المعرفة» ، من ناحية إدراكه وتفكيره ، وجدانه وعاطفته ، نزوعه ورغباته وإرادته وميوله . وأول مايلفت النظر هو أهمية حاجياتهم الطبيعية لهم، فكل مايبهم الأسود قبل كل شئ هو الرغبة فى الطعام والشراب ، وكذلك الميل الجنسى ؛ والشعوب الفطرية التى تسكن أواسط أفريقيا وجزر المحيط الهادى لا ترتقى كثيراً عن مستوى الحيوان ، وذلك لشهوتهم الملحة نحو الأكل ، والصيغة المنحطة التى يشبعون بها هذه الشهوة ؛ فغاية

[1] DENIKER, LES RACES ET LES PEUPLES DE LA TERRE.

الزنجي أن يملأ بطنه حتى النهاية ، وهو بهذا سعيد لأن السعادة كثيراً ما تكون نتيجة البطون الممتلئة ، وبعض هؤلاء الزوج من أكلة البثر ، ولكن ليس من طبعهم لثوم ولا إفساد ، بل تقوم الحرب عندهم للبحث عن الطعام ، فهي بذلك نوع من أنواع الصيد .

وحواسهم في الغالب مرهفة ، ويستعملونها قبل كل شيء لاشباع حاجاتهم الطيفية ، والزنجي كثير الحركة ، فهو أشبه في حركته بحركات الأطفال ، ويميل إلى الرقص ميلاً شديداً قديصل إلى حد الشغف به ، ويصحب الرقص موسيقى أولية تستثير نفسه فينتشى من الأنغام والحركات ؛ وقد وصف ابن خلدون شغف الزوج بالآكل والرقص وأرجعها إلى أسباب طريفة ، قال في المقدمة الرابعة : « من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب ، فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع ، موصوفين بالحق في كل قطر ، والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة ، أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيوانية وتقشيه ، وطبيعة الحزن بالعكس ، وهو انقباضه وتكافئه ، وتقرر أن الحرارة مفسية للهواء والبخار ، فخلخلته زائدة في كميته ، ولهذا يجد المنتشى من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه ، ... ولما كان السودان ساكنين في الاقليم الحار ، استولى الحر على أمزجتهم ، وفي أصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم ، فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الاقليم الرابع أشد حراً ، فتكون أكثر تقشياً فتكون أسرع فرحاً و سروراً ، وأكثر أنبساطاً ، ويجيء الطيش على أثر هذه ... » ؛ وقد تناول غير ابن خلدون ممن سبقوه ذكر تعليل أخلاق السودان ، فقد سقه ابن خلدون نفسه آراءهم فقال : « وقد تعرض المسعودي للبحث عن السبب في خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم ، وحاول تعليله فلم يأت بشيء أكثر من أنه تقل عن جالينوس ويعقوب بن اسحاق الكندي ، أن ذلك لضعف أدمغتهم ، وما نشأ عنه من ضعف عقولهم ، وهذا كلام لا محصل له ولا برهان فيه » . ولا نريد أن نتعرض لنقد رأي ابن خلدون طويلاً ، فليس هذا شأننا الآن ؛ ولكننا نقول إن كلا الرأيين : رأي المسعودي ، ورأي ابن خلدون خاطئ ، وإذا كان به نصيب من الصحة ففيه كثير من الخلط والابهام والغموض ، وذلك أنه - ومثله في ذلك مثل كثير من القدماء - يخلط المشاهدة بالتفسير ، والتعليل بالواقع ، ذلك أنه في مثل هذه المسائل نكتفى بالملاحظة الدقيقة التي نشاهدها عن بحث أسبابها وعلاها ، لأن هذا يدخلنا في جدل لا خلاص منه ، ونخرج بنا من ميدان العلم الوضعي الصحيح إلى ميدان الفلسفة وما وراء الطبيعة .

نعود إلى ما ذكرناه من وصف الظواهر النفسية عند الزوج ، فنقول إن الاحساس والحركة تشغل تقريباً كل مجرى الشعور الضيق عندهم ، فلا يبقى بعد ذلك إلا مكان تافه لذكريات الماضي ، ومشاغل المستقبل .

وتلعب العادة دوراً مهماً في حياة الزوجي التي تجري على وتيرة واحدة ، فهو عميل إلى أن يردد على نسق واحد وبطريقة جد آلية الافعال التي عملها من قبل ، فهو يتذكر الأشياء ليعملها بنفس الطريقة التي سبق أن أتى بها هذا العمل ، وهذه الذكرة التي نستطيع أن نسميها ذاكرة نفعية ، كثيراً ما تكون على شيء من الحدة شديد ، بل قد تكون أحياناً خارقة للعادة ومما يحكى في هذا الصدد أن بعض المبشرين الذين ذهبوا إلى أواسط أفريقيا شاهدوا بعض الزنوج يحفظ قطعة موسيقية بأكلها لأول مرة دون أن يخطئ فيها ؛ ومع ذلك فالزوجي يضطرب في استحضار الصور المختلفة التي مرت عليه خلال النهار ، فتصوره للماضي من هذه الناحية غامض مبهم مضطرب ، إذ يخلط بين ما يتذكره وما يتخيله ، ثم هو بعد ذلك يقع فريسة لأوهامه وخيالاته ، وقد كانت نتيجة اضطراب الذاكرة وخطئها أنه لا يعرف حساباً دقيقاً مضبوطاً للزمن ، فالزوجي يجهل حتى عمره ؛ وهذا ولما كان الزوجي لا يحسن التذكر فانه قليل البصر بالمستقبل أو ما قد يقع في المستقبل ، وقد أجمع الرحالة على طيش الاستراليين وأهل أواسط أفريقيا وغفلتهم العجيبة ، فالاستراليون عاجزون عن أداء أى عمل متواصل ، لا يجنون ثمرته إلا في المستقبل ، كذلك (البوشمان) فعندهم إما رخاء ويسر أو قحط وعسر ؛ فالزنوج مؤمنون بالقضاء والقدر ، تكفيهم الساعة التي هم فيها دون أن يتطلعوا إلى المستقبل . فلما كانت حياتهم محدودة بالوقت الحاضر ، كانت حياتهم النفسية محدودة كذلك إلى حد كبير ، فالشطر الوجداني من الحياة - وهو أهم شيء فيها كما بينا عند الكلام على الانفعالات في عدد سابق من «المعرفة» ، حياتهم الوجدانية متقلبة وغير بعيدة الغور ، فانفعالاتهم حادة ولكنها لا تدوم ؛ كذلك لاحظوا عليهم خفة كخفة الاطفال ، وفرحاً وقتياً ، ولا يهتم الزوجي بما يجيء بعد ذلك ، فقد ينتقل من الضحك إلى البكاء ، ومن البكاء إلى الضحك ، كل ذلك في فترة قصيرة جداً كما يفعل الاطفال تماماً .

أما ذكاؤهم فلا يبعد كثيراً عن الحس ، ويقول سبنسر نقلاً عن (بريتون) (١) : إن العقل الافريقي - يريد أواسط أفريقيا - لا يستطيع أن يسمو فوق دائرة الحواس ، ولا يستطيع أن يشغل نفسه بغير الحاضر .

وحياة الزوج عند الزوجي ، أى ما يدفعه إلى الحركة ، أكثرها أفعال منعكسة REFLEXES ورغبات طبيعية أكثر منها حياة خاضعة لارادة قوية ، فساوكة كما يقول سبنسر ساوكة نزوات واضطراب ؛ والتعليم عند الزوج ، إن كان هناك تعليم ، محدود إلى درجة كبيرة وهو أقل في درجته ، كما وكيفا ، مما تلتقاه الطبقات المتحضرة عند الجنس الابيض والاصفر ، لأن التعليم ، وديعة السلف إلى الخلف ، وهؤلاء لا يتلقون من أسلافهم إلا شيئاً ضئيلاً ، وذلك لأن حياتهم الاجتماعية ، مثلها في ذلك مثل حياتهم الفردية ، تتلاشى في الزمن الحاضر ؟